جمالية المكان في رواية عائلة من فخار
(مسار المتقاعد صاحب الخيزرانة)
لمحمد مفلاح

الدكتور: مزاري عبد القادر
جامعة مستغانم

إن المتأمل للمتون السردية التي أسهم بها الباحث الروائي محمد مفلاح في إثراء دواليب الحركة الثقافية الجزائرية، والعربية على حد سواء، وتنميتها من خلال إبداعاته المختلفة–من أعمال أدبية متنوعة بين قصص الطفل مثل: (معطف القط مينوش)، و(مغامرة النملة كليحة)، و(وصية الشيخ مسعود). وروايات ك(رواية الانفجار)، و(بيت الحمراء)، و(زمن العشق والأخطار)، و(هموم زمن الفلاقي)، و(الانهيار)، و(خيرة والجبال)، و(الكافية والوشام)، و(الوساوس الغريبة)، و(عائلة من فخار)، وقصص مثل المجموعة القصصية (السائق)، و(أسرار المدينة). يقف على مدى قدرته على توظيف العناصر السردية، وتنويعها بين سرد للأحداث الواقعية، وتلك التي يجنح إلى خياله في إبداعها، ومن هده العناصر توظيفه لجمالية المكان في رواية عائلة من فخار (مسار المتقاعد صاحب الخيزرانة)، التي ألّفها في سنة **2004.**

إن المكان في الرواية يشكل اللبنة الأساسية لهندسة بنائها، وقاعدة بالغة الأهمية لتحقيق العضوية بين بقية المكونات الفنية المساهمة فيه، فإذا كانت الرواية لا تعرف إلا من خلال "الموضوع الذي تدور حوله القصة(...)، ويعتمد عليه في تنمية المواقف وتحريك الشخصيات"[1]، فكذلك لابد من مكان أو أمكنة تحوي الأحداث والحركة والشخصيات معا. وهو ما يعني أن مجموع الوقائع التي يتخذها الكاتب بعد أن يعرج بها نحو منحى جديد، بإضافة مسحات جمالية فنية، فينتشلها من واقعها الخارجي ليقحمها عالم الإبداع بتقديم رؤيته، ومواقفه التي تجسدها شخصيات الرواية في المكان الحقيقي، أو المتخيل، الذي أعده المبدع سلفا، وذلك إذا ما اعتبرنا أن "المكان جزء من المسرح الروائي، وهو يتصل اتصالا وظيفيا بالدلالة، وهو الذي يحدد دلالة الرواية، وهو الذي يحدد هوية العمل الفني وجديته وأصالته"[2]، فالمكان هو موضع تتفاعل فيه الشخصيات وتتنوع فيه الأحداث، وذلك ما استطاع الروائي محمد مفلاح من خلاله أن يوظف المكان، ويعطيه أبعاده الدلالية والجمالية من خلال متن عائلة من فخار.

فالمتلقي إذا ما اعتبر أن ارتباط الحدث في العمل السردي بالشخصية هو ارتباط وثيق، أو كارتباط الفعل بالفاعل في الجملة النحوية، وكانت الشخصية تؤثر في الحدث وتحرك دواليبه، بل تبث فيه الروح والحياة، فإن المكان يعتبر "المعطى الخارجي المحايد الذي نعبره دون أن نأبه به، وإنما المكان حياة، لا يحده الطول والعرض فقط، وإنما خاصية الاشتمال"[3] إذ إن المكان في المنظومة السردية لا يعني الدلالة الجغرافية الواقعة بين حدود عمودية وأفقية، والتي تشغل مساحة محدودة من الأرض، مثلما أشار إليه عبد المالك مرتاض حين قال: "أما المكان فهو ذو مفهوم جغرافي خالص، أي أنه يحيل إلى موقع جغرافي بعينه من الأرض، كأن يكون بلدا أو مدينة أو قرية أو حيا أو شارعا أو بناية أو جبلا أو حقلا، مما لا يكاد يحصى من أضرب المكان"[4]، وإنما ينزاح المفهوم الدلالي للمكان إلى أبعد من ذلك فتصبح الدلالة هنا متسعة لتشمل البيئة بما تحوي من أراضي وبشر وعمران وأحداث ... فحين يصير المكان مزيج في رواية عائلة من فخار يشغل حيزا وجدانيا عاطفيا ينجذب إليه المبدع، فإن المتلقي

لا شك وأنه يقف على هذا الشعور النفسي الفياض المتدفق حنانا من خلال الحوار الذي يدور بين شخصيات الرواية، وهو ما وفق إليه وإلى حد كبير الروائي مفلاح، حين استطاع أن يجمع بين الوطن، والأم، والأهل، والمدينة، ليعبر عن الاشتياق إلى المكان، فلما أوهم موسى –وهو أحد أبطال شخصيات عائلة من فخار أمه– على أنه متجه إلى العاصمة للبحث عن عمل قائلا لها والحسرة تتملكه : "أحبكم جميعا يا أمي، أحب مدينتي وناسها، وأنا لست محتاجا للمال، الحمد لله،ساحة السوق كريمة، ولكنني أريد أن أتنفس هواء آخر"[5] إلا أن موسى هنا كان على وشك خوض غمار الهجرة السرية غير الشرعية (أو الحرقة بالمصطلح العامي الذي أشار إليها الروائي)، وفي هذا المقطع استطاع مفلاح إشراك المتلقي من خلال التعاطف مع (موسى) وهو يعبر عن اشتياقه للمكان المادي العاطفي (الأم والأهل)، وللمكان المعنوي العاطفي كذلك المتمثل في المدينة، (ساحة السوق الكريمة) أثناء وبعد المغادرة، فكان مفهوم المكان عبارة عن كيان مفعم بالحياة التي تدب فيها الحركة، يؤثر ويتأثر، بل ونجده يتعدى ذلك كونه يتفاعل مع حركات الشخصيات وخلجاتهم وأفكارهم، فهو يقاسمهم أفراحهم وأقراحهم، ولا يمكن أن نتصور عملا أدبيا ناجحا ما لم يتعرض إلى وصف للأمكنة، والمساكن، والمناظر الطبيعية، وهو ما تتمظهر من خلاله الملامح الشاعرية والمتجاوزة لحدود لغة الأدب "لذلك فإن التمييز بين الشخصية الروائية والحدث أمر شكلي لا تفترضه إلا مقتضيات تبسيط عملية التحليل. وهو من شروط الحدث الوظيفية والعضوية "[6]. اللتين تتحدد ملامحهما منذ بداية الرواية أي من البذرة الأولى التي تنم عن الحركية، وبداية الفعل داخل الحيز المكاني، وذلك ما لمسناه في رواية (عائلة من فخار) حينما بدأها صاحبها بوصف أحداث الرواية وصفا مكانيا دقيقا قائلا: "هبت الريح الشرقية على المدينة الرابضة بالربوة الجرداء، وسهلها الخصيب، وراحت تجلد بحرارتها المقيتة البنايات المغروسة بشكل فوضوي في حي (البرتقال)"[7]، وتتقدم الأحداث لتصل إلى الذروة حينما تأزمت الأحداث على شخصية البطلة الرئيسية في الرواية (خروفة) لما انكشف أمرها، وذاع خبرها ليس على الفضاء الغليزاني فحسب، بل تعداه إلى مدينة وهران، تلك المدينة الواسعة الأرجاء والتي درست (خروفة) بالجامعة فيها، لقد ضاقت عليها الدنيا بما رحبت "ولم يعد لخروفة أي أمل في البقاء بالبيت، استعدت لمغادرة المدينة، جمعت هذا الصباح ملابسها الصيفية في حقيبة جلدية سوداء. لقد انكشف سرها الدفين. لم..."[8] وفي ذروة الأحداث هذه لم ينس الروائي ربط الأحداث بالمكان، ثم جاءت النهاية، والتي ختمها هي الأخرى بخاتمة مكانية دالة على ارتباط الحدث بالمكان حين قال: "كانت الساعة تشير إلى الثالثة مساء لما ركب أول حافلة متوجهة إلى خلوة مينة"[9]، ومينة هنا هو مكان يقع بغليزان، وبين تقدم الأحداث، ونهايتها تتأزم هذه الأخيرة أي (الأحداث)، وتتعدد الأمكنة، وتصل إلى ذروتها "والذروة أو العقدة هي المحور الأساسي التي تتجمع حوله القصة، ويصعد نحوه قبل أن تأخذ طريقها نحو الحل النهائي، أو الخاتمة المرسومة"[10]. ولعل هذه الأحداث المرتبطة بالمكان في مسارها الروائي تطرح قضايا عميقة، وتحمل دلالات من شأن التحليل المعمق أن يسفر عنها، وكثير ما تنم عن رؤيا الكاتب وخلفياته الإيديولوجية. تبرز في كيفية صياغته للوقائع الخارجية، وطريقة ترتيبها بغرض تقديم فكرته التي تعد لب عمله الروائي. "والدليل على أن المكان مفعل أن العرب لا تقول في معنى هو من مكان كذا وكذا إلا مفعل كذا وكذا بالنصب"[11]، وهو ما ينم على الارتباط العلائقي بين الحدث، والمكان في البناء الفني للعمل الروائي الذي عرضته أحداث الرواية.

وهنا يمكننا القول إن "الرواية تشبه الفنون التشكيلية من رسم ونحت في تشكيلها للمكان، فإن المساحة التي تقع فيها الأحداث والتي تفصل الشخصيات بعضها البعض، بالإضافة إلى المساحة التي تفصل بين القارئ وعالم الرواية، لها دور أساسي في تشكيل النص الروائي"[12]، ذلك ما ذهب إليه الروائي في متن عائلة من فخار حين قصد إلى تشكيل الفضاء المكاني، وتعدد دلالاته حيث نجده قد ربط المكان بالزمان، كما بين علاقة الإنسان بالمكان، ثم

فصل في المكان الروائي، إذن فالعمل الروائي الذي تكون فيه البداية والنهاية طرفين رئيسين في تحديد الملامح العريضة لبنائه الفني ومسار الأحداث المرتبطة بالمكان.

هو ذلك العمل الذي جعل من أحداث رواية عائلة من فخار للروائي محمد مفلاح مرتبطة بـ:

علاقة المكان بالزمان:

لا يمكن أن نتخيل أحداثا في منأى عن الزمكان أو الوسط التي تدور فيه أحداث القصة، إذ إن للقصة حيزا زمانيا وآخر مكانيا وفي ذلك يقوم عبد المالك مرتاض "برسم الحيز،وغرس الزمن فيه أو تعويم الزمن في الحيز (...) وعلى الرغم من أنهما متلازمان لا يفترقان.. فإن جمهور الدارسين ومحللي الروايات يميزون بينهما على سبيل التيسير الإجرائي، وإلا فلا حيز بلا زمان ولا زمان بلا حيز، ولا يجوز أن ينفصل أحدهما عن صنوه في العمل السردي"[13]، وإذا كان مرتاض قد فصل في علاقة الزمان بالمكان وأشار إلى عملية التيسير الإجرائي، فإن الروائي من خلال متنه عائلة من فخار قد وفّق في المزج بين الزمكانية الحقيقية والزمكانية المجازية، وانعكس ذلك من خلال ما هو متخيل فني بما هو حقيقي واقعي حينما راح يربط أحداث الأمكنة بأحداث الأزمنة، فزمن عائلة (خروفة ولد الفخار الفتاة الشابة المتحررة المثقفة الجامعية والحاملة لشهادة الهندسة المعمارية)* زمن معاصر أما المكان وإن تعدد في المتن الروائي فنيا فقد تحدد جغرافيا إذ إن الأحداث تدور كلها داخل الفضاء الغليزاني وهي منطقة تقع بالغرب الجزائري وهي أحداث تقع في أماكن تعكس جانبا من الواقع الجزائري.

هذه العلاقة بين الزمان والمكان أضفت فسحة لكثير من شخصيات الرواية في تفريغ بعض المكبوتات حينما اهتدى الروائي لإشراك المتلقي في تصور المتخيل السردي الذي اختاره لعمله الروائي وبذكاء منه استطاع أن يربط بين ما هو زماني بما هو مكاني حينما قال على لسان خروفة بحزن: "لم أعد قادرة على الصبر.

وعند ساحة حديقة البلدية، رن صوت (أم كلثوم) في رأسها : "إنما للصبر حدود".. وسارت بسرعة أكبر في النهج المنحدر إلى الجهة الشرقية من المدينة. كانت الساعة تشير إلى العاشرة صباحا، ومع ذلك لا يستطيع المرء أن يمشي في الشوارع والأزقة دون أن يضع على رأسه قبعة أو مظلا لاتقاء نيران الصيف الرهيب. ورددت خروفة بصوت مسموع:

إنما للصبر حدود..للصبر حدود.."[14]، فاستطاع الروائي من خلال مزج صورة المكان الشديد الحرارة بنيران زمن الصيف الرهيب أن يشد انتباه المتلقي منذ بداية الأحداث إلى ما سوف تعانيه الشخصية البطلة من غبن ومتاعب. وفي آخر المطاف وقفنا على العلاقة الوطيدة بين تفسير المكان للزمن، وفائدة توظيف عنصر الزمن للكشف عن عنصر المكان في العمل الروائي.

علاقة الإنسان بالمكان:

إذا وضعنا في الحسبان أن "الصورة الأدبية يجب أن تكون أبدا أرقى من صورة الحياة وأجمل وأقسى وأسوأ بحسب الظروف والأحوال"[15]، فإن الروائي في روايته هذه قد استطاع انتقاء الكلمات الموحية الدالة على المكان سواء أكانت تلميحا أم تصريحا، ومنه تبرز فنية اختياره اللغة الدالة على ذلك والتي تسهم في بناء الفضاء المكاني، وسهولة تبليغه الآخر.

"ويعكس البناء المكاني كل هذه الرموز والمنظومات الذهنية مع اختلاف أسلوب كل رواية في استخدام هذا الترابط الذهني بين المجرد والمكان"[16]، وبذلك تتم سهولة التبليغ.

ومن هنا كان للمكان في حياة الإنسان قيمته الكبرى، ومزيته التي تشده إلى الأرض، ولا غرو، فالمكان يلعب دورا رئيسيا في حياة أي إنسان، لذلك فإن المتن الروائي المتناول جاء فيه المكان دالا على مدى ارتباط الإنسان (أو شخوص الرواية) من خلال ذكر مختلف الأمكنة التي لا يستطيع الإنسان إلا أن يحي فيها، والدليل

على ذلك الحديث عن غرفة الأولاد "..لأول مرة يدخن في غرفة الأولاد"[17]، أو وصفه لبعض أجزاء المكان الذي شغل كثير من الأثاث فها هو يشير بالقول "وجلست على حافة السرير..الغرفة الضيقة..وساوسها المخيفة.. أوقفت تشغيل التلفاز.."[18]، ثم الانتقال من الغرفة إلى الحي (حي البرتقال) ثم ساحة السوق، فخلوة مينة، ثم المدينة (مدينة غليزان) ولا يستثن من ذلك مدينة وهران والتي بها الجامعة التي درست بها بطلة القصة (خروفة).

لقد تدرج محمد مفلاح من خلال حديثه عن المكان بالمتلقي، وكأنه يرسم له معالم تجعله يربط الأحداث بالمكان، وخاصة أثناء الحديث عن البيت والغرفة والحي، فالمكان مرتبط ارتباطا وثيقا بحياة الإنسان في نومه، وأحلامه، وفي يقظته وآماله، وقد يتحول المكان إلى "صورة فنية كبرى تمتلك عبر التاريخ بعض العناصر الثابتة، وخاصة صورة بيت الطفولة"[19]، فالبيت الذي ترعرع فيه شخوص الرواية، أو الحي الذي لعبوا فيه ودرسوا، أو امتهنوا حرفا وتاجروا فيه، والمدينة التي آوتهم، وشهدت أفراحهم، وأتراحهم، والوطن الذي ضمهم جميعا هي مكان يكبر حجمه كلما ابتعدنا عن البيت الذي ولدنا فيه؛ ويصغر كلما اقتربنا منه لأن "ذلك البيت الذي ولدنا فيه، أي بيت الطفولة، إنه المكان الذي مارسنا فيه أحلام اليقظة، وتشكل فيه خيالنا، فالمكانية في الأدب هي الصورة الفنية التي تذكرنا، أو تبعث فينا ذكريات الطفولة"[20]، والحنو إلى بيت الطفولة إنما هو حنو إلى الطفولة والتي كلما تقدم بنا السن أدرك كل منا أنه يحمل بداخله طفل، وذلك ما جعل لدلالة "البيت القديم بيت الطفولة هو مكان الألفة، ومركز تكييف الخيال، وعندما نبتعد عنه نظل دائما نستعيد ذكراه، ونسقط على الكثير من المظاهر المادية، ذلك الإحساس بالحماية، والأمن اللذين كان يوفرهما لنا البيت"[21]، وبهذا يمكن القول إن علاقة المكان بالإنسان في رواية عائلة من فخار هي علاقة الجسد بالروح.

المكان الروائي وأنواعه:

لا شك أن العمل السردي لا يكتمل ما لم يوظف فيه السارد عنصر المكان. وللمكان صور مختلفة خاصة إذا وضعنا في الحسبان "أن الصور السردية تعرض الأشياء متحركة، أما الصور الوصفية فهي تعرض الأشياء في سكونيتها"[22]، والحركة هي التي تحي المكان الساكن فتنفخ فيه الروح وتبث فيه النشاط ذلك إذا اعتبرنا سلفا أن المكان "عنصرا رئيسيا يلتحم مع مكونات العمل الروائي"[23]، ومن هذه الأنواع:

المكان المتخيل:

ما من إبداع إلا ويوظف فيه صاحبه عنصر المكان سواء أكان حقيقيا أم متخيلا لأن المكان "هو بنية تكشف في جمالية اللامحدود، واللامطق، فيغدو بذلك الغامض والغريب جميلا تستصيغه الأذن، ويقع في القلب موقعا حسنا، ويؤدي دورا بارزا في مجال العمل الإبداعي، فهو ينم عن ملكة فذة، متميزة، قادرة على أن تجمع بين صور الواقع، وجعلها متناسقة ومنسجمة أيما انسجام"[24]، وهذه الجمالية المكانية اللامطلقة هي التي جعلت من والد (خروفة) قول الروائي: "غرق في عالمه الخاص ثم أصبح في المدة الأخيرة يزور باستمرار منطقة جبل الأخيار"[25]، وكأنها إشارة توجيهية من لدن الروائي إلى المكان الذي قد يستأنس إليه الإنسان، والمجسد هنا في (والد خروفة) ذلك حينما تسمو نفسه إلى أماكن عزلته فتسمح له بالخلوة لبعض الوقت مع عالمه المتخيل لأن المكان يدعو إلى الصفاء الروحي،كما أن المكان المتخيل قد لا يكون يدعو إلى الاطمئنان، والصفاء الروحي في كل الأحوال، بل قد يكون على العكس من ذلك فيصبح المكان المتخيل جحيما أثناء تأزم الأحداث على البطلة مثلما هو الشأن حين اكتشف أمر البطلة من الفضيحة التي لاحقت بها، وتضافرت ضدها نوائب الدهر فانقلب عليها مكان طفولتها حينما وقف ضدها أفراد عائلتها إذ إن "..يوسف سبها ثم خرج من البيت وهو يتمتم كالمجنون. أما موسى فقد ألقى عليها نظرة خاطفة، وقال لها : فكري في الهجرة إلى الخارج. وتمزق قلب خروفة، وهي ترى أخاها موسى يدخن بعصبية. فرت من نظراته القلقة"[26]، فجاء المكان المتخيل لا يدعو إلى الاستقرار،

والاطمئنان، وإنما إلى الهجرة والهروب إلى الأمام، وكل هروب متمثل في الهجرة القصرية فهو الارتماء في أحضان المجهول. وكأن المكان هنا هو ذلك المكان الذي "يحمل في طياته بذور التغيير، والانتقال من مرحلة إلى أخرى، ومن موقف إلى آخر، فمن خلاله يسعى الإنسان إلى تحقيق ذاتيته ووجوده"[27]، وهل يتحقق ذلك في كل الأحوال؟

إن الفسحة التي أوجدها الروائي في المكان المتخيل لشخوص روايته؛ هي عبارة عن تقنية من تقنيات الترويح التي استحدثها، ليفتح الباب على مصراعيه للحلم والخيال، والذي يتولد عنه حوارا داخليا: "فينتقل الروائي بذلك بشخصياته وأحداثه إلى أمكنة وهمية ومتضادة، عن طريق الحلم والخيال والترويح عنها، وجعلها تتنفس الصعداء، كأنه يفرج كربتها، ويحل عقدتها النفسية"[28]، وبذلك يكون الروائي قد أوجد الأمكنة الوهمية والحاملة لمتناقضات الحياة، من خلال الحدث المنوط بشخصيات عائلة من فخار.

إن تمظهر جمالية المكان في متن عائلة من فخار، وتعدد أنواعه تعكس مدى المخيلة الواسعة لصاحب المتن، حيث إنه وبواسطة توظيفه عنصر المكان تمكن من تحرير شخوص روايته، فجعل الخلوة في المكان متعة، والهروب المكاني من مكان إلى آخر هو في حدّ ذاته متعة، وتغيير الأجواء المكانية متعة، ما جعل "رواية عائلة من فخار" متعة جمالية مكانية بامتياز.

الإحالات

1- عزيزة مريدن— القصة والرواية، ديوان المطبوعات الجامعية، 1985، ص25.
2- د.خليل الموسى: آفاق الرواية بنية وتاريخا ونماذج تطبيقية، ط1، دمشق 2002، ص، ص: 24،23.
3- د.حبيب مونسي: قراءة المكان، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، ع:1، 2002/2001، ص: 30.
4- د.عبد المالك مرتاض: الأدب الجزائري القديم- دراسة في الجذور- دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع،ط3، 2003، ص: 166.
5- محمد مفلاح: رواية عائلة من فخار(مسار المتقاعد صاحب الخيزرانة)، دار النشر والتوزيع، 2008، ص :7
6- الفارابي عبد اللطيف وشيكر أبو ياسين: -العالم الروائي عند غسان كنفاني، دار ط1، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1987ص27.
7- الرواية ص:1
8- الرواية ص .95
9 - الرواية ص .108
10- محمد خير الشيخ موسى: -فن القصة في يوميات نائب في الأرياف، ط1، مطبعة النجاح الجديدة 1984، ص13.
11- ابن منظور: لسان العرب، دار بيروت، ط3، المجلد 13 ،1994، ص: 414.
12 - سيزا أحمد قاسم: بناء الرواية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1984،ص: 84.
13- عبد المالك مرتاض: في نظرية الأدب،بحث في تقنيات الكتابة الروائية،دار الغرب للنشر والتوزيع، ص 192.
* خروفة ولد الفخار بطلة متن عائلة من فخار.
14- الرواية ص،ص: 5، 6.
15- عبد المالك مرتاض: القصة الجزائرية المعاصرة ص 138
16-سيزا أحمد قاسم: بناء الرواية،ص: 75.
17 الرواية ص: 95.
18-الرواية ص: 95.
19-غاستون باشلار:جماليات المكان، ترجمة:غالب هلسا، المؤسس الجامعية، بيروت، ط2، 1984، ص 8

20-المرجع نفسه، ص: 6.
21- المرجع نفسه، ص 9.
22- سيزا قاسم: بناء الرواية، مرجع سابق، ص: 113.
23- غاستون باشلار: جماليات المكان، مرجع سابق،ص: 99.
24- غاستون باشلار: جدلية الزمن، ترجمة:خليل أحمد خليل، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1982، ص: 41.
25- الرواية ص: 59.
26- الرواية ص: 96.
27- مصطفى عشوي: مدخل إلى علم النفس، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائرية، 199 9، ص:25.
28- فيصل دراج: نظرية الرواية العربية، المركز الثقافي العربي، ط1، الدار البيضاء 1998، ص:25.